في الأدب الفرنسي

جان بول سارتر والسينما

تساءل الكاتب الفرنسي المعروف جان بول سارتر عن الأدب ما هو وماذا ينبغي أن يكون؟ ودفعه هذا التساؤل إلى أن يضع كتابا قيسا لم يظهر بعد في مجلد ولكنه نشر تفاريق مجلة العصور الحديثة وقد عرضنا لهذا البحث بشيء من النقد المفصل في عدد يونيو الماضيين هذه المجلة والفكرة التي دار حولها هذا الكتاب القيم هي مقدار ما يكون بين الأديب وبين قرائه من الاتصال من جهة ومقدار ما ينبغي أن يحتمل الأديب من تبعة بحكم هذا الاتصال بينه وبين القراء ومشاركته لهم فيما يعرض من المشكلات التي تأتلف منها الحياة الاجتماعية مهما تكن طبيعة هذه المشكلات ومن دون تفريق بين ما يتصل منها بالسياسة أو بالنظام هذه المشكلات ومن دون تفريق بين ما يتصل منها بالسياسة أو بالنظام الاجتماعي أو بأي لون من هذه الألوان التي تؤثر في حياة الناس والتي يجب على الأديب أن يشارك فيها ويحتمل نصيبه من تبعاتها كما يجب على الأدب أن يصورها ويصور المشاركة فيها ويصور الوسائل المختلفة لتدبيرها والخروج من ضائقتها واستكشاف ما يمكن استكشافه من الحلول لأزماتها مهما تختلف في الطبيعة والصورة والأثر وهذه الفكرة هي ما يسميه جان بول سارتر التزام الأدب وهي ليست أكثر من أن الأديب يجب أن يعيش مع معاصريه فيشقى بشقائهم ويسعد بسعادتهم ويواجه مشكلات الحياة كما يواجهونها ويصور هذا كله في أدبه تصويرا دقيقا خصبا مجديا دون أن ينفصل عن حياة معاصريه أو يعتزلهم ليعيش في برجه العاجي وينتج في هذا البرج أدبا لا يتصل بالأم الناس وآمالهم وما يعرض لهم من بؤس ونعيم.

وقد استعرض جان بول سارتر في كتابه هذا تاريخ الأدب الفرنسي في عصوره المختلفة وبين مقدارها كان بين الأدباء وقرائهم من الصلات والاشتراك في احتمال التبعات على اختلاف العصور وتباين الظروف ووصل من هذا الاستعراض إلى نتائج رائعة في تاريخ الأدب الفرنسي

ليس هنا موضع الحديث عنها ولكنه لاحظ أن تطور الحياة الحديثة ولا سيما في القرن التاسع عشر وفي أوائل هذا القرن قد انتهى بالأدب إلى أن يكون لونا من ألوان الترف يترفع عن الحياة اليومية العاملة ليعني بألوان من هذه الحياة الفنية المترفة التي لا تتاح إلا لطبقات ضيقة من الناس ثم حاول أن يرسم للأديب المعاصر ولنفسه وأصحابه بنوع خاص برنامجا يحققون به الاتصال بينهم وبين قرائهم ويشاركونهم به في مواجهة ما تمتلئ به الحياة المعاصرة من المشكلات التي تزداد عنفا وتعقدا من يوم إلى يوم وقد اضطره إلى أن يستقصي مشكلات الحياة الاجتماعية في هذه الأيام وينتقد المذاهب السياسية الاجتماعية التي تحاول حل هذه المشكلات ويختار لنفسه ولأصحابه طريقا وسطا بين مذهب الشيوعيين الذين يلغون حرية الفرد ومذهب البورجوازيين الذين يبيحون هذه الحرية لفريق من الناس دون فريق وأراد أن يصل إلى نوع من النظام يكفل للفرد حريته كاملة ويكفل للجماعة عدلا شاملا ويكفل للأديب حريته الكاملة في التفكير والتصوير والتعبير دون أن يخضع لما تفرضه الأحزاب على لأعضائها من قيود وأغلال تضطرهم إلى أن يفكروا ويصوروا ويعبروا كما يريد نظام الحزب لا كما تريد حرية الفرد ولا كما تريد طبيعة الأشياء وحقائق الحياة.

وقد استعرض جان بول سارتر وسائل الاتصال بين الأديب المنتج والجمهور المستهلك فلاحظ كما يلاحظ غيره من الناس أن العصر الحديث قد ابتكر لهذا الاتصال وسائل لم تكن معروفة من قبل وأن هذه الوسائل قد طغت وأسرفت في الطغيان على الوسائل القديمة فالصحف والمجلات أكثر اتصالا بالجامعات وتغلغلا بين طبقاتها من الكتب والراديو أكثر اتصالا بالجامعات وتغلغلا بين طبقاتها من الصحف والمجلات فضلا عن الكتب والسينما أكثر دعاء وأشد استهواء للجماعات على اختلاف طبقاتها من التمثيل.

وإذن فما ينبغي للأديب الذي يقدر الحياة الاجتماعية ويشارك فيها وفي احتمال تبعاتها أن يهمل هذه الوسائل المستحدثة ويفرغ لاستخدام الوسائل القديمة التي لم تفقد قيمتها وخطرها ولا ينتظر أن تفقد قيمتها وخطرها ولكنها لا تستطيع أن تظفر من الشيوع والشمول والتغلغل في الطبقات المختلفة المتفاوتة بمثل ما تظفر به الوسائل المستحدثة فستؤلف الكتب وسيقرؤها وستنشأ المسرحيات وسيشهدها النظارة ولكن الصحف والراديو والسينما ستكون أكثر انتشارا وأشد اتصالا بالجماعات وأعظم تغلغلا في طبقاتها من الكتب والمسرحيات.

وقد لاحظ جان بول سارتر في شيء من الدعابة أن مسرحية قصيرة من مسرحياته حظر تمثيلها في بريطانيا العظمى ولكنها أذيعت في الراديو البريطاني فكانت النتيجة أن الذين استمعوا لها من الإنجليز كانوا أكثر مرات كثيرة من الذين كان يمكن أن يشهدوها في ملعب التمثيل على أن الرقابة البريطانية قد فطنت آخر الأمر لهذه الملاحظة فأباحت عرض هذه القصة في

الملاعب والمهب هو أن جان بول سارتر يريد بلا ريب أن يساير الحياة الحديثة وأن يتصل بقرائه أو بمستهلكيه من طريق الوسائل المختلفة التي تستحدث لهذا الاتصال وقد سلك هو هذا الطريق فهو يؤلف الكتب على اختلافها يؤلف الكتب التي يقصد بها الخاصة ليتحدث إليهم في الفلسفة الوجودية أو في هذا الموضوع أو ذاك من موضوعات الدراسة الأدبية ويؤلف الكتب التي يتجه فيها إلى الجماعات الضخمة ليذيع فيها ما يريد أن يذيعه من تصوره للمشكلات وتصويره لها ومذهبه في حلها يسلك في ذلك طريق القصص الطويل والقصير.

وهو يصدر مجلته ليتجه فيها مع أعوانه إلى جماعات من القراء قد تؤثر الدراسات الميسرة التي لا تنحرف مع ذلك عن مناهج البحث الدقيق على الكتب الفلسفية الجافة وعلى القصص السهل اليسير ثم هو بعد ذلك ينشئ المسرحيات التي يتجه فيها إلى جماعات تحب أن تأتيها متعة المعرفة والفن لا من طريق القراءة وحدها ولكن من طريق القراءة والنظر لحركات الممثلين والاستمتاع لهم حين يتحاورون ثم هو لا يكره أن يتحدث إلى المستمعين في الراديو أو ينشئ لهم من الآثار ما يتلى عليهم من طريق الراديو ليستمعوا له غير مقبلين عليه كل الإقبال ولا متوفرين له كل التوفر ولا معرضين عنه كل الإعراض.

ولم يبق من هذه الوسائل المستحدثة إلا السينما فقد حاول جان بول سارتر أن يتخذ هذه الوسيلة ليتصل بالجماعات الضخمة المتباينة في البلاد المختلفة المتنائية في وقت واحد وواضح جدا أن الكاتب والصحيفة والمجلة لا تقرؤها الجماهير مجتمعة وإنما يخلو فيها القارئ إلى نفسه وإلى الأديب الذي يقرأ كتابه أو مقاله في الصحيفة أو فصله في المجلة وواضح كذلك أن المسرحية لا تعرض في غير ملعب واحد في المدينة الواحدة ولا يشهدها من أجل ذلك إلا جمهور من النظارة مهما يكن ضخما فهو محدود والذين يمثلون المسرحية أو ينشئون أدوارها كما يقول أصحاب التمثيل مضطرون إذا نجحت المسرحية أن ينفقوا في تمثيلها الأشهر ليشهدها الأشهر ليشهدها أكبر عدد ممكن من النظارة وأن يتنقلوا بها بعد ذلك في كثير من المدن بل في كثير من البلاد ليظهروا عليها أضخم عدد ممكن من الناس وفي ذلك من الجهد والمشقة والعسر ممثلوها وما يريد الناس أنفسهم أما السينما فهو يملك من وسائل التيسير ما لا تملكه الكتب ولا الصحف ولا الراديو ولا التمثيل فالقصة الواحدة إذا أعدت للعرض تستطيع بعد إعدادها أن تغزو الأرض كلها في وقت واحد وأن تشهدها جماعات النظارة في جميع أقطار الأرض في غير مشقة يحتملها الكاتب أو المخرج أو الممثل شانه في ذلك شان الكتاب المطبوع ولكنها تتحدث إلى الجماعات حين يتحدث الكاتب إلى الفرد ثم حي تتحدث إلى الجماعات من طريق العين ومن طريق الأذن حين يتحدث الكتاب من طريق العين وحدها أو من طريق الأذن وحدها ثم هي تستعين على الحديث من طريق العين والأذن بأشياء لا يستطيع الكتاب أن يستعين بها لأنه لا

يستطيع أن يحققها ففيها الحركة وفيها اختلاف المناظر وفيها ما تمتاز به المناظر من الروعة والقدرة على التأثير المباشر من طريق الأشياء نفسها لا من طريق الألفاظ التي تدل عليها بالرمز الذي يخطئ حينا ويصيب حينا آخر.

وقد تصحبها الموسيقى فتستأثر بملكات النظارة كلها فالأديب الذي لا يرى الأدب ترفا ولا فكاهة ولا تلهية وإنما يراه جدا من الجد ويراه مشاركة في الحياة ونهوضا بأعبائها واحتمالا لتبعاتها لا ينبغي له أن يهمل السينما كما لا ينبغي له أن يهمل أية وسيلة تمكنه من أن يتصل بالجماعات ويؤثر فيها فيوجهها إلى ما يريد أن يوجهها إليه ويصدها عما يريد أن يصدها عنه ويغريها بما يحب أن يغريها به ويزهدها فيما يحب أن يزهدها فيه والأديب من بعد ذلك أو من قبل ذلك مضطر إلى أن يصطنع هذه الوسائل ليحمي نفسه من الفناء وليحمي نفوس الجماعات من الفساد فهذه الوسائل المستحدثة قد وجدت وأصبحت من ضروريات الحياة الحديثة فليس من سبيل إلى إلغاء الصحف ولا إلى إسكات الراديو ولا إلى تحريم السينما فالأديب بين اثنتين: إما أن يغزو هذه الوسائل ويتخذها أدوات لإذاعة الأدب وما يحمل إلى النفوس من خير ورشد وإصلاح وإما أن يهمل هذه الوسائل فيقضي على أدبه بالتزام الحدود التي لا يتجاوزها الكتاب ويعرض نفوس الجماعات لشر عظيم تحمله إليها الصحف والراديو والسينما التي ستكون أداة لقوم ليس لهم حظ من أدب ولا من فلسفة ولا من فلسفة ولا من فقه بالحياة ومشكلاتها وإنما همهم كله أن يلهوا الجماعات بما يذيعون فيها من سخف رخيص وأن يستنزلوا الجماعات بما ينشرون فيها من دعوة إلى أشياء لعلها لا تلاءم ذوقا ولا منفعة ولا رقيا ولا ميلا إلى الإصلاح والخلاصة أن الأديب إذا أمن بأنه فرد من الجماعة التي يعيش فيها ويحتمل معها تبعات الجهاد مهما تختلف فليس له بد من أن يصطنع كل هذه الوسائل قديمها وحديثا وما يمكن أن يستحدث منها في مستقبل الأيام ليحقق اتصاله بالجماعات ويحقق اتصال الجماعات به.

وكما أن الأديب لا ينبغي أن يعتزل في برجه العاجي وأن يوحي منه إلى الجماعات كتبا أو فصولا لا تتصل بحياتها اتصالا مباشرا وإنما ينبغي أن يعيش مع الناس في الأرض ويشتق كتبه من نفوسهم فهو كذلك لا ينبغي أن يعتزل في برجه العاجي ليوحي إلى الناس قصصا تعرض عليهم في السينما دون أن تكون هذه القصص مشتقة من حياتهم مصورة أدق تصوير وأصدقه لما يجدون من ألم ولذة وما يحسون من أمل ويأس وما يثور في قلوبهم من عاطفة وشعور فليست الحياة أهواء ولا لعبا وإنما الحياة جهاد يحتاج الناس في أثنائه إلى شيء من اللهو وفنون من التسلية ليستعينوا بذلك على احتمال الحياة والمضي في جهادهم في غير سأم أو ملل أو فتور وإذن فيجب أن يلتزم السينما كما يلتزم الأدب أي يجب أن يعرض السينما على النظارة حياتهم وما يملؤها من المشكلات وما يمكن أن يواجهوا به هذه المشكلات من حزم

وعزم ومن رفق وأناة ومن صبر واحتمال ومن حيلة وتصرف وما يمكن أن يجدوا لهذه المشكلات من حلول تريحهم منها ليستقبلوا غيرها فحياة الناس لم تخل ولا يمكن أن تخلو من المشكلات ولا سيما حين يكون لهؤلاء الناس حظ من رقي العقل وذكاء القلب ودقة الحس وقوة الضمير.

وقد حاول جان بول سارتر اصطناع السينما لإذاعة أدبه أول ما حاول يعرض قصته تلك القصيرة التي حظرت في بريطانيا العظمى وأذيعت في الراديو وهي القصة التي عنوانها: Huis Clos والتي أستطيع أن اسميها من وراء السور فالقصة تعرض أمر نفر من الناس دفعوا بعد الموت على الجحيم وضرب من دونهم بسور ظاهرة فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب وليس في جحيمهم هذا الذي دفعوا إليه نار تتلظى ولا سعير تصهر فيه الجلود وتذاب فيه الأجسام بل ليس فيه ألم مادي ما وإنما هم مدفوعون إلى حجرة من الحجرات التي ألفوها في حياتهم الدنيا وهم مكرهون على أن يقيموا في هذه الحجرات إلى آخر الأبد أن كان للأبد أخر وهم يصلون متتابعين إلى حجرتهم هذه لا يعرفون أنهم موتى وإنما يخيل إلى كل واحد منهم أنه قد أقبل على فندق من الفنادق وقادة الخادم إلى حجرة من حجراته فهم يتفقدون في هذه الحجرة مرافقهم التي ألفوها في الحياة الدنيا وهم يتبينون شيئا فشيئا أنهم قد ماتوا وأنهم يلقون في هذه الحجرة جزاء ما قدموا بين أيديهم من الأعمال وليس هذا الجزاء ألما ماديا كما قدمت وإنما هو ألم معنوي يتبينون إحساسهم له شيئا فشيئا يتبينون ذلك حين يتعرف بعضهم إلى بعض وحين يذكر كل واحد منهم لنفسه أولا ولرفاقه بعد ذلك ما قدم من أعمال منكرة وما اقترف من آثام استحق عليها العقاب ثم حين يكون بينهم الاختلاف والتناكر وحين يستبين كل واحد منهم أنه لا يستطيع أن يعاشر رفاقه راضيا عن عشيرتهم ولا يستطيع أن يفلت من هذه المعاشرة فهو مكره إذن على معاشرة لا يطيقها ولا يطمئن إليها ولا يستطيع أن يخلص منها إلا إذا عكف على نفسه وأهمل طائعا أو كارها من حوله من الرفاق وسواء أراد أو لم يرد فهو يرى هؤلاء الرفاق ويتأذى بمنظرهم وهو يسمعهم ويتأذى بما يسمع منهم وهو يحاول أن يفر منهم إلى نفسه فلا يرى في نفسه إلا نكرا وهو لا يستطيع أن ينسى هذا النكر الذي يراه في نفسه لأن أعماله كلها تعرض عليه وآثامه كلها تمر أمامه من وراء هذه الأسرار فيتحدث عنها فيؤذيه حديثه ويؤدي رفاقه ويسكت عنها فيؤذيه سكوته ويؤذي رفاقه لأن كل واحد منهم في حاجة إلى أن يشغل نفيه عن نفسه ولأن كل واحد منهم يؤذيه أن يشغل نفسه عن نفسه كما يؤذيه ما يحاول من الفراغ لنفسه والانصراف إليها عمن حوله من الناس فكل واحد منهم إذن إنما يحمل جحيمه في نفسه وليست جهنم شيئا منفصلا عن الإنسان وإنما هي شيء مستقر في ضميره حيا وميتا وكل ما في الأمر أن الإنسان في حياته الأولى قد يخدع ضميره أو يخدع عن ضميره بما يكسب من عمل وبمن يعاشر من الناس وبما يعرض له من المشكلات التي يشغله بعضها عن بعض ومن اللذات التي قد تشغله

عن آلامه وقتا يقصر أو يطول فأما بعد الموت فليس يشغله عن نفسه شيء وليس يصرفه عن آلامه وآثامه شيء وهو يعلم حق العلم أنه موقوف على هذه الآلام والآثام وأن هذه الآلام والآثام موقوفة عليه أبد الآباد أو أبد الآبدين وقد يخطر لك أن هذه الفكرة الفلسفية المجردة قد تكون في نفسها قيمة عظيمة الخطر بعيدة الأثر في نفس الذين يظهرون عليها من النظارة حين يشهدون التمثيل أو من القراء حين يقرءون القصة ولكنك تسأل: كيف عرضت هذه الفكرة على المسرح وعلى الشاشة البيضاء كما يقول أصحاب السينما؟ وهذا بالطبع حديث لا أريد أن أقف عنده الآن وقد ألم به في مقال آخر حين أعرض لمسرحيات جان بول سارتر وإنما يكفي أن تعلم أن التمثيل إنما يقوم على ما يكون بين هؤلاء النفر حين يلتقون من حوار فيه العسر واليسر وفيه العنف واللين وفيه الخلاف والرفاق وكله منته آخر الأمر إلى العجز واليأس اللذين ينتهيان بأصحابهما إلى الجنون إلا أن الموتى لا يصيبهم الجنون فأما السينما فإنه يصور هذا كله ويؤديه أداء حسنا ولكنه يعرض مع هذا كله تلك الآلام والآثام التي اقترفها هؤلاء النفر في حياتهم الأولى والتي يتحدث بها بعضهم إلى بعض في ملعب التمثيل فلا تطهر النظارة عليها إلا من طريق اللفظ الذي تسمعه الأذن فأما في السينما فيظهر النظارة عليها من طريق العين لأنها تمر لأنها تمر أمامهم مرا كلما عرض لها أصحابها في الحديث.

وكأن هذه القصة في السينما قد أغرى الكاتب إغراء شديدا بأن يعني بالسينما من حيث هو سينما فلا يعيره قصة كتبت للملعب وإنما يمنحه قصصا تكتب له خاصة.

ومن الكتاب الفرنسيين الممتازين من حاول وما زال يحاول هذا الفن السينمائي الخالص فيظفر بكثير من النجاح والتوفيق والناس كلهم يذكرون روائع جان كوكتو ومارسيل بانيو ولكن هذين الكاتبين وغيرهما لا يتجاوزون بآثارهم محاولة التوفيق بين السينما والفن فليس بعينهم أن يذيعوا فكرة فلسفية أو أدبية ما وإنما يعينهم أن يمتعوا النظارة بالسينما كما تعودوا أن يمنعوهم بالتمثيل فأما جان بول سارتر فهو لا يكره أن يمنع النظارة ولكنه لا يكتفي بإمتاعهم وهو لا يكره أن يعظ النظارة ولكنه لا يكتفي بوعظهم وإنما يحاول فوق الإمتاع والوعظ أن يعرض عليهم مشكلات عنيفة بعضها يعرض للإنسان من حيث هو إنسان يفكر في حياته ومصيره تفكيرا فلسفيا وبعضها يعرض له من حيث هو إنسان يدبر حياته تدبيرا سياسيا واجتماعيا فيلقى في هذا كله ما يلقى من المصاعب والعقاب.

وقد كتب جان بول سارتر للسينما قصتين إلى الآن عرضت إحداهما في كان ولم تعرض على الجمهور بعد ونشرت الثانية في مجلة من مجلات السينما ولست أعلم أن المخرجين قد هموا بإخراجهما بعد فأما القصة التي أخرجت وعرضت بالفعل فعنوانها الفرنسي les jenx sont faits وتستطيع أن تترجم هذا العنوان بهذه الكلمة العربية لقد تمت اللعبة كما تستطيع أن

تترجمه بكلمة واحدة وهي هيهات وهذا العنوان الفرنسي ليس إلا الجملة التي ينطق بها محرك الروليت في أندية القمار قبل أن يحرك هذه الأداة وبعد أن يضع اللاعبون ما يضعون من النقد على ما يختارون من الأرقام وإذا نطق صاحب الأداة بهذه الجملة فهو إنما ينبه اللاعبين إلى أن أحدهم لا يستطيع أن يختار رقما غير الرقم الذي اختاره ولا يستطيع أن يسترد النقد الذي وضعه على هذا الرقم فقد تمت اللعبة ولم يبق إلا أن تجري الكرة وتختار اللاعبين أو تختار من اللاعبين صاحب الرقم الذي أتيح له الكسب فإذا قلت تمت اللعبة أو قلت هيهات أو قلت سبق السيف العدل أو قلت لا سبيل إلى استدراك ما فات فقد أديت المعنى الفلسفي الذي قصد إليه الكاتب حين أنشأ قصته.

ويقول النقاد الذين شهدوا عرض هذه القصة في مدينة كان إنها لم تظفر بشيء من النجاح ثم يختلفون بعد ذلك في مصدر هذا الإخفاق فبغضهم يحمل تبعته على جان بول سارتر لأنه كلف السينما ما لا يطبق وعرض على النظارة مشاهد لا يحبون أن يروها ولم يتعودوا أن يروها وكلفهم أن يخادعوا أنفسهم خداعا عظيما قوامه التحكم الخالص ليفرقوا بين أشخاص ومشاهد لم يألفوا التفريق بينها وبعضهم يحمل تبعة هذا الإخفاق على المخرجين والممثلين لأنهم لم يحسنوا الإخراج والعرض والتمثيل ومن المحقق أني لن أحاول القضاء بين هؤلاء المختصمين فلست من السينما في شيء وليس السينما مني في شيء ولكن من المحقق أيضا أني قرأت هذه القصة التي أذيعت في الناس تمهيدا لعرضها عليهم وقرأتها ثلاث مرات فلم تزدني قراءتها إلا إعجابا بها ورضا عنها لا لما فيها من أراء فلسفية فحسب ولا لما لها من قيمة طريقة العرض التي يقتضيها السينما والتي تدفع الكاتب والقارئ جميعا إلى شيء من النشاط والحركة والتنقل السريع المفاجئ من بيئة إلى بيئة ومن طور إلى طور بل من عالم إلى عالم كما سترى.

وليس يعنيني أن تظفر هذه القصة بالنجاح على الشاشة البيضاء أو لا تظفر به وإنما الذي يعنيني أنا قبل كل شيء هو أن هذا اللون من الكتابة القصصية يمكن أن يقصد إليه الكاتب في نفسه سواء عرض على النظارة أو لم يعرض فهو في نفسه فن طريف حي خصب يستطيع أن يكون أداة قيمة جدا للإبلاغ ما يريد الأدباء أن يبلغوه إلى قرائهم من طريق الكتاب ولا عليهم بعد ذلك أن يستغله السينما فينجح في استغلاله أو يخفق ولا عليه ألا يستغله السينما أصلا وقد أستطيع أن أضرب لك مثلا مقاربا فالأدب التمثيلي القديم اليوناني واللاتيني ممتع حين تقرؤه خالد بحكم هذا الإمتاع وقليل منه يمكن أن يمثل في الملاعب ويظفر برضا النظارة ولكن أكثره قد فقد هذه الخصلة وأصبح ممتعا بقراءته ليس غير.

وقد يستطيع الممثلون المعاصرون أن يعرضوا على النظارة "أنتيجون"، أو "أوديب" أو الكنز من آثار سوفوكل ولكني أشك أعظم الشك في أنهم يستطيعون أن يعرضوا على النظارة في

اوكتيت أو إياس من آثار هذا الشاعر نفسه وأن يظفروا بشيء من إعجاب النظارة المحدثين وكل رجل مثقف يجد المتاع كل المتاع في قراءة هاتين القصتين بل قد حاول أندريه جيد في كثير من التوفيق أن يجد قصة فيلوكتيت كما جدد قصة أوديب وكما جدد كتاب آخرون قصصا أخرى لسوفوكل وغيره من القدماء فالكتاب الذين يستعيرون من السينما طريقته في العرض والحركة والتنقل السريع يحددون في الأدب تجديدا خطيرا ويفتحون للأدباء آفاقا واسعة سواء وفق المخرجون أم لم يوفقوا في إخراج ما يكتبون.

والذين قرءوا طريق الحرية أو ما ظهر من طريق الحرية لجان بول سارتر يلاحظون أنه لم يصل إلى هذا اللون من الفن فجاءه ولا عن إرادة وتعمد وإنما وصل إليه شيئا فشيئا من طريق التطور الفني الرفيق تأثر في ذلك ببعض الكاتب الأمريكيين وتأثر فيه بالسينما وتأثره فيه بالحياة الحديثة كما تعود الكتاب أن يفعلوا وإنما هو أمام أشخاص كثيرين جدا مختلفين أشد الاختلاف يعيشون في أقطار متنائية متباعدة وتحدث لكل واحد منهم ألوان مختلفة من الأحداث كلها متأثر بذلك الروع الذي ملأ الأرض قبيل الحرب العالمية الثانية وهو يلقى إليك أطرافا من هذه الأحداث في شيء يشبه أن يكون فوضى ولكنه قد نظم أدق تنظيم وأمتنه فهو يحدثك عن رجل مروع في هذه المدينة من مدن تشيكوسلوفاكيا ثم يثب بك إلى المدينة ميونيخ حيث الاستعداد للقاء هتلر وتشمبرلين ثم أنت في باريس في ناد من أندية اللهو ثم أنت في باريس في غرفة خاصة حيث يتناجى عاشقان وهو كذلك يتنقل بك في أقطار أوربا وربما نقلك إلى إفريقية وربما عبر بك البحر بين مراكش وفرنسا وأنت لا تستقر في مكان من هذه الأماكن إلا ريثما ينقلك منه إلى مكان آخر ولكنه على كل حال مغرق في هذا الروع الذي ملأ الأرض قبيل الحرب مفكر في الحرب مستحضر لها ولأهوائها شاهد لآياتها وبوادرها متأثر بعد ذلك بما لكل قصة من هذه الأماكن إلا ريثما ينقلك منه إلى مكان آخر ولكنه على كل حال مغرق في هذا الروع الذي ملأ الأرض قبيل الحرب مفكر في الحرب مستحضرها ولأهوالها شاهد لآياتها وبوادرها متأثر بعد ذلك بما لكل قصة من هذه القصص الكثيرة المختلفة المختلطة من عبرة تتصل بالسياسة أو بالخلق أو بالفلسفة أو بنظام الاجتماع فهو لا يقص عليك الأحداث وإنما يعرضها عيك عرضا قد استعار للكتابة فن السينما في العرض فأتقن الكتابة والعرض جميعا قد استعار للكتابة فن السينما في العرض فأتقن الكتابة والعرض جميعا بحيث يمكن أن يعرض هذان الجزءان اللذان ظهرا من كتابه عرضا سينمائيا في غير مشقة ولا عناء.

فلا غرابة إذن في أن يستقبل الكتابة الأدبية الفلسفية للسينما ولا غرابة كذلك في أن يجدد الفنيون مشقة في الإخراج ويجد النظارة عسرا في الفهم والاستمتاع..

والقصة التي نحن بإزائها تعتمد على شخصين اثنين هما البطلان ومن حولهما أشخاص كثيرون لكل منهم مكانه وأثره وهذان الشخصان رجل وامرأة فالرجل فهو بيير دومين وهو عامل ممتازين زملائه قد أسس مع جماعة من رفاقه جماعة الحرية التي تنظم مقاومة الطاغية منذ أعوام وهي تستعد للثورة من غد وأما المرأة فهي إيف شارلييه وهي بالطبع جميلة رائعة الجمال غنية واسعة الغنى تشغل مع زوجها في الطبقة الممتازة مكانا رفيعا فإذا بدأت القصة فإيف هذه مريضة تراها في سريرها مكدودة وقد أقبل زوجها مترفقا فدنا منها وتبين أنها لم تحس مقدمه لأنها مغرقة في النوم ثم يعرض عليك منظر غرفة حقيرة في بيت متواضع وقد اجتمع رؤساء العمال حول رئيسهم بيير وقرروا بعد مناقشة أن تبدأ الثورة من غد ثم نترك هذه الغرفة ونرى بيير في الشارع يركب دراجته ويدنو منه غلام يعتذر من بعض الخطأ ونفهم أنه قد وشى بالجماعة إلى الشرطة بعد أن عذبته الشرطة عذابا شديدا ونفهم كذلك أن بيير لا يريد أن يعفو عنه وإنما يزدريه أشد الازدراء فيمتلئ قلب الفتى حفيظة وموجدة وخزيا ثم نرى بيير قد وصل إلى مكان خارج المدينة حيث تعمل طوائف من العمال والفتى يتبعه حتى إذا بلغ قريبا من أصحابه أطلق الفتى عليه مسدسه فخر صريعا وأقبل العمال من كل صوب حين سمعوا انطلاق المسدس ثم نعود إلى الغرفة التي تمرض فيها إيف فنرى زوجها قد انحنى ينظر في وجهها حتى إذا استيقن أنها نائمة استخرج من جيبه زجاجة صغيرة وصب منها قطرات في قدح من الماء وضع؟إلى جانب السرير ثم انسل إلى الصالون حيث كانت تنتظره لوست أخت امرأته وهي فتاة في الثامنة عشر من عمرها مشفقة اشد الإشفاق على أختها فلا تكاد تسأله عن حالها حتى يهيئها للنبأ الخطير والفتاة جزعت أشد الجزع ولكن الرجل يهدئ من روعها في رفق ونفهم أنها يتملقها ويريد أن يخيل إليها شيئا يشبه الحب.

ثم نعود إلى خارج المدينة فنرى بيير صريعا قد أحاط به العمال وقد أقبلت فرقة من الجند فالعمال يتحرشون بها ويريدون أن يرجموها بالحجارة والجند يتهيئون لإطلاق النار ثم نعود إلى الغرفة التي تمرض فيها إيف فتراها قد أفاقت من نومها وأخذت الكأس وشربت ما فيها ثم نهضت متثاقلة فسعت إلى الصالون ودعت زوجها ثم عادت إلى سريرها وجعلت تحذر زوجها في صوت خافت متهالك من أن يعرض لأختها بشر وتنبئه بأنها ستبرأ وستحمي أختها منه وبأنه لم يتزوجها إلا رغبة في ثروتها وبأنه الآن يطمع في ثروة أختها منه وبأنه لم يتزوجها إلا رغبة في ثروتها وبأنه الآن يطمع في ثروة أختها وزوجها يسمع لها غير حافل ولا مكترث ثم لا تلبث أن تموت وتعود إلى خارج المدينة فترى العمال مزدحمين حول الصريع يتأهبون لرشق الجند يريدون إطلاق النار ولكن بيير ينهض من مصرعه ويتخطى جثته التي لا تزال في مكانها وينصح العمال بأن يتفرقوا ملحا عليهم أشد الإلحاح ولكن أحدا من العمال لا يسمع صوته ولا

يرى شخصه فإذا استيأس منهم رفع كتفيه ومضى لوجهه وتعود إلى غرفة المريضة التي صرعها الموت فنراها قد نهضت وجعلت تسعى من الغرفة حتى تبلغ الصالون فترى أختها الفتاة منتحية قد وضعت رأسها على كتف الزوج الذي جعل يهدئها ويواسيها متلطفا مترفقا متحببا أيضا وهي تقف أمامهما فلا يريانها وتتحدث إليهما فلا يسمعانها حتى إذا استيأست منهما تركتهما ومضت نحو الباب فتلقى الخادم في طريقها فتتحدث إليها ولكن الخادم لا تراها ولا تسمعها وهي تمر أمام المرأة فتنظر إليها ولكن المرآة لا ترد إليها صورتها وهي تنظر فترى المرأة ترد صورة الخادم ولا ترد صورتها هي فتنطلق ونحن في الشارع نرى حركة الناس وازدحامهم واضطرابهم فيما يضطربون فيه ونرى في الوقت نفسه بيير يسعى في بعض الطريق وإيف تسعى في بعض الطريق أيضا وكلاهما يرى الناس ويسمع منهم ويحاول أن يعرض لهم فلا يراه أحد وأن يتحدث إليهم فلا يسمع منه أحد وكلاهما يمضي في طريه يسأل عن شارع بعينه لأنه على موعد في هذا الشارع ولكنه يسأل في غير طائل فالناس لا يرونه ولا يسمعونه ولا يجيبونه وكلاهما يسعى مع ذلك حتى يصل إلى زقاق ضيق غريب قد كتب عليه اسم الشارع الذي يسأل عنه وكلاهما يدخل في هذا الزقاق فإذا جماعة من الناس قد وقفت أمام باب مغلق في أقصى الزقاق وهذا الباب يفتح بين حين وأخر فيدخل منه أحد هؤلاء الناس ثم يغلق حينا ثم يفتح ليدخل من شخص آخر ويلاحظ بيير إيف أنهما يريان هؤلاء الناس ويسمعان منهم وأن هؤلاء الناس يرونهما ويسمعون منهما والباب يفتح فيدخل بيير وإذا هو في حجرة ضيقة يمضي فيها حتى يبلغ أقصاها فإذا هو في حجرة ضيقة يمضي فيها حتى يبلغ أقصاها فإذا سيدة نصف قد جلست أمام مائدة وعلى المائدة دفتر ضخم فإذا انتهى بيير إلى هذه السيدة سألها في أدب: أهي تنتظره؟ فتنبئه السيدة بأنه قد مات مقتولا ثم تطلب منه أمضاءة على الدفتر فإذا فعل أذنت له في الانطلاق ولكن على أن يخرج من باب غير الباب الذي دخل منه فإذا سألها: إلى أين أذهب؟ وماذا يجب أن أعمل؟ أن يأته بأن الموتى أحرار يذهبون إلى حيث يشاءون ويعملون ما يشاءون وتجري القصة نفسها لإيف بعد حين فتعلم من السيدة أنها قد ماتت مسمومة وتمضي على الدفتر وتمضي حرة تذهب إلى حيث تشاء وتعمل ما تشاء لأن الموتى أحرار بعد أن يوقعوا بأسمائهم في سجل الأموات.

ولست أقص عليك تفصيل ما يعرض لهذين الميتين بعد خروجهما من هذه الحجرة وانطلاقهما في المدينة يريان الأحياء ويسمعانهم ولكن الأحياء لا يرونهما ويلقيان الموتى فنونا وأشكالا منهم المحدثون ومنهم الذين بعد عهدهم بالموت وهما يستطيعان أن يتحدثا إلى الموتى وأن يسمعا منهم وأن يتندرا معهم بالأحياء وما يعملون لا أقص عليك ما يعرض لهما من خطوب فذلك شيء يطول وإنما أسجل شيئين اثنين: أحدهما أن بيير يذهب مع دليل له مع الموتى إلى

قصر الطاغية فيدخل القصر وينسل إلى غرفة الطاغية فيراه مبتذلا متهيئا لاتخاذ ثيابه الرسمية ويتناول طعامه ومن حوله موتى كثيرون كلهم مبغض له ساخط عليه يريد أن يصيبه بالمكروه ولكنه لا يبلغ مما يريد شيئا لأن الموتى لا يبلغون مما يريدون شيئا وقد أنبأهم بيير بأن الطاغية سيموت من غد حين تشب الثورة التي دبرها والموتى لا يصدقونه ولكنه يلح حتى يوشك أن يقنع بعضهم بصدق ما يقول ولكن رئيس الشرطة يدخل فينبئ الطاغية بأن زعيم الثورة قد قتل ويغضب الطاغية لذلك غضبا شديدا فهو قد كان أعد للثورة قد قتل ويغضب الطاغية لذلك غضبا شديدا فهو قد كان أعد للثورة جيشا ضخما وقرر أن يسحقها سحقا وأن يريح نفسها منها عشر سنين على الأقل وإذن فقد استيقن بيير بأن الثورة ستستحق وأن الطاغية لن يفاجأ والموتى يضحكون منه ويحاولون تعزيته ولكنه يمضي مغضبا لا يلوي على شيء حتى يبلغ الغرفة التي كان يأتمر فيها مع أصحابه فيراهم ويسمعهم ويعلم أن مصرعه قد بلغهم ويحاول أن يتحدث إليهم ليردهم عن الثورة ويحملهم على تأجيلها ولكنهم لا يرونه ولا يسمعون منه فينصرف عنهم بائسا مستيقنا بوقوع الكارثة من غد.

هذا أحد الأمرين أما الأمر الثاني فهو أن بيير يلقي إيف فينظر إليها ويدنو منها ويكون بينه وبينها حديث ثم شيء يشبه الألفة وهما يذهبان معا إلى إحدى الحدائق وإلى ناد من أندية اللهو في هذه الحديقة تغشاه الطبقة الممتازة من أصحاب إيف وهما يريان ويسمعان ولكن أحدا لا يراهما ولا يسمعهما وقد استحالت ألفتهما إلى تعاطف ثم إلى شيء يشبه الحب وهما يتراقصان ولكنهما لا يجدان لذة الرقص لأن الموتى لا يجدون لذة لشيء وكلاهما يود لو بذل نفسه ثمنا للحظة قصيرة ينفقها مع صاحبه كما ينفق الأحياء أوقاتهم حين يكون بينهم الحب ولكن كليهما يحس كأنه مدعو إلى موعد فينطلقان حتى يبلغا تلك السيدة التي تسجل الموتى فتنبئهما بأنها كانت تنتظرهما وبأنه قد علمت بأن كليهما يظن أن قد غلط به في الحياة وأن كلا منهما قد خلق لصاحبه وأن المادة الأربعين بعد المائة من القانون تقضي في مثل هذه الحال بتصحيح الخطأ ورد الحياة إليهما أربعا وعشرين ساعة فإذا استطاعا أن يستأنف كل منهما حياة قوامها الحب الصحيح مدت لهما أسباب الحياة وإلا عادا إلى الموت وهما يزعمان لهذه السيدة أن قد غلط بهما وأن كلا منهما قد خلق لصاحبه فترد إليهما الحياة ويودعان الموتى الذين يتمنون لهم الخير ومنهم من يكلفهما بعض الأعمال في عالم الدنيا.

ثم نعود إلى خارج المدينة فإذا جثة بيير في مكانها وإذا العمال من حولها يتأهبون لرشق الجند بالحجارة والجند يتهيئون لإطلاق النار فقد حدثت كل هذه الأحداث على كثرتها في لحظة قصيرة لأن الزمن لا حساب له بالقياس إلى الموتى وقد جلس بيير ويسمعونه وأية ذلك أنهم

أطاعوه وتفرقوا ولكنه ينهض في شيء من ذهول ويعمد إلى دراجته فيركبها ويعود إلى المدينة وقد أرسل العمال من ورائه أحدهم ليتتبعه ويعينه أن احتاج إلى شيء من عون.

ونعود إلى الغرفة التي ماتت فيها إيف فنراها على سريرها وقد جئت أختها منتحبة إلى جانب السرير ولكن إيف تتحرك ثم تتكلم ثم تنهض وقد حدثت كل هذه الأحداث في أقصر لحظة ممكنة لأن الزمن لا قيمة له بالقياس إلى الموتى وقد ابتهجت أختها الفتاة حين رأتها تتحدث إلى أختها محذرة لها من هذا الزوج الخائن الذي يخدعها ليظفر بثروتها والفتاة تدافع عن هذا الزوج لأنها لم تر منه إلا خيرا ونحن أمام الدار التي تسكنها وهي دار أنيقة فخمة قد أقبل عليها بيير حتى إذا بلغها نزل عن دراجته ودخل وسأل البواب عن الطابق الذي تسكنه إيف شارلييه فيدله عليه مزدريا له ويأمره بأن يرقى إليه من سلم الخدم ثم نرى الخادم قد أقبلت تتبئ سيدتها بمكان هذا العامل وبأنه يريد أن يلقاها وبأنه ينتظر في المطبخ فتذكر إيف كل ما حدث لها أثناء الموت وتأذن لبيير فإذا أقبل راعه ما في هذه الدار من ترف لم ير مثله قط وهو على كل حال يلقى صاحبته ويتحدث غليها ويدعوها إلى أن ترافقه وهي تتردد شيئا ثم تذكر ما زعمت لمسجلة الموتى فمنهم أن تخرج ولكن الزوج يقبل فيراهما وقد ظهر تفوقه على امرأته فقد رآها في غرفتها مع رجل غريب من غير طبقتها ورأى بينهما صلات لا تكون إلا بين العاشقين فهو يريد أن يطردها ولكنها تخرج مع رفيقها وفي نفسها شيء من حب وفي نفسها كثير من حسرة وخوف على أختها وهما يستأنفان في الشارع كل ما حدث لهما أثناء الموت فيسعيان إلى الحديقة وإلى النادي ويريان أصحاب إيف ويسمعانهم ولكن أصحاب إيف يرونهما هذه المرة وينكرون مكانهما ويسخرون منهما وهما يشقيان بذلك شقاء مختلفا مصدره استخذاء المرأة من رفيقها العامل الوضيع أمام هذه الطبقة الممتازة واستخذاء الرجل من ضعة هيئته ومما بينه وبين صاحبته من الفرق الهائل في الطبقة وفي الفقر والغنى ولكنهما كليهما حريصان مع ذلك على أن يستأنفا حياة قوامها الحب فقد أعطيا بذلك عهدا في دار الموتى فهما يعرضان عن كل ما يلقاهما من المصاعب وهما يتراقصان في نفس المكان الذي تراقصا فيه ميتين ولكنهما يجدان لذة الرقص في هذه المرة ويكادان ينعمان بهذه اللذة لولا هذه البيئة التي تنغص عليهما كل شيء وقد وقع الشر بين بيير وبين رجل من هذه البيئة وأقبل جندي يريد أن يعنف بيير فتظهر إيف بطاقتها للجندي ويعلم بيير لأول مرة أن زوجها يشغل منصبا خطيرا في الشرطة فينصرف عنها هاربا ألم ينفق حياته كلها في مقاومة هذه الشرطة والكيد لها؟ فالنظام الاجتماعي كله والنظام السياسي كله والنظام الاقتصادي كله يحول بينه وبين هذه المرأة التي زعمت أنها خلقت له والتي زعم أنه خلق لها ولكن إيف تدركه وما تزال به حتى ترده إلى بعض الهدوء ثم يتعاونان على إنقاذ ما أوصاهما به بعض الموتى فيقرب ذلك بينهما شيئا ما ثم يذهبان إلى دار بيير ويفترقان حين يبلغانها يريد

بيير أن تستأنس صاحبته إلى هذه الدار وحدها من جهة وأن يسرع إلى أصحابه فينبهم إلى الخطر الذي ينتظرهم من جهة أخرى فأما هي فتصعد إلى الغرفة التي يعيش فيها بيير وتجد شيئا من الحرج في الاطمئنان إليها والاستقرار فيها ولكنها مع ذلك تدعن لما ليس منه بد فتأخذ في إصلاح الغرفة وأما هو فيذهب إلى أصحابه فإذا لقيهم أنكروه أشد الإنكار لأنهم عرفوا دخول هذا الموظف الكبير من موظفي الشرطة وخروجه مع امرأته ثم لم يكتفوا بالشك فيه وإنما اتهموه بالتجسس عليهم بأنه قد أفضى بأمرهم كله إلى حكومة الطاغية وقد انصرف عنهم يائسا منهم وعاد إلى صاحبته حزينا كئيبا فهي تواسيه وتسليه وترفق به وتذكره الحب وما أعطيا من عهد وما ضرب لهما من موعد سينتهي إذا كان الغد وبينما هما كذلك إذ يأتي أحد العمال فينبئ بيير بأن أصحابه قد ائتمروا به ليقتلوه ويحثه على الهرب بأنهم قادمون لإنقاذ ما أزمعوا والعامل ينصرف وبيير ينبئ صاحبته بأنه مقتول بعد حين ويأبى الهرب وهذه أقدام يسمع وقعها وإذا العاشقان يعتنقان والباب يطرق ثم يطرق ثم ينصرف الطارقون فلا يشك العاشقان في أن النصر قد كتب لحبهما وفي أن الموت قد صرف عنهما لينعما بهذا الحب السعيد.

فإذا أصبحا من الغد فهما راضيان بعض الرضا لا كله لا يشك أحدهما في انه يحب صاحبه ولكن بيير يذكر الثورة التي ستستحق بعد حين وأصحابه الذين سيمحقون محقا ويريد أن يبذل آخر جهد لينقذ الثورة من الإخفاق وينقذ أصحابه من الموت وإيف تذكر أختها التي توشك أن تكون فريسة لهذا الرجل الذي لا يحبها وإنما يحب ثروتها وهي تريد أن تبذل آخر جهد ممكن لإنقاذها وهما مع ذلك يحاولان أن يستمسكا بالحب والحياة ولكنهما يفترقان على أن يلتقيا بعد ساعة قبل أن يحين الموعد قبل أن يحين الموعد الذي ضرب لهما في دار الموتى.

فأما هي فلا تكاد تدخل دارها حتى ترى أختها وزوجها قد جلسا إلى طعامهما جلسة لا تخلو من ريبة فتخرج المسدس وتأمرهما ألا يتحركا حتى تقص على أختها خيانة زوجها ثم تأمرها بأن تستخرج من مكتب زوجها رسائل الحب التي تثبت خيانته وأمر بيير فقد ذهب إلى أصحابه في ذلك الوقت نفسه حتى اطمأنت إليه الجماعة بعد لأي وهمت أن ترجل الثورة ولكن الثورة قد بدأت في مواضع كثيرة وهم يتداولون فيما ينبغي أن يتخذوا من قرار لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وقد دنا الموعد الذي ضرب لبيير وصاحبته في دار الموتى فهو يسرع إلى التليفون لينبئ صاحبته بأنه لا يستطيع فراق زملائه وهو يحاورهما حوارا شديدا في التليفون نسمعه نحن والوقت يمضي ويمضي وقد اقبل الجند فحاصروا المجتمعين وتطلق رصاصة فيخر لها بيير صريعا والجند يقتحمون الدار ويقهرون من فيها ثم نرى بيير يتخطى جثته ويمضي لا يراه أحد ولا يسمعه أحد ثم نراه بعد ذلك وقد لقي إيف ميتين وكلاهما يتحدث إلى صاحبه كأنهما قد خدعانا عن أنفسهما وعن الحب وبأن التجربة قد أخفقت وبأنهما قد عادا إلى الموت لأن بيير لم يتمن الحياة إلا لينقذ الثورة

وأصحابه ولأن إيف لم تتمن الحياة إلا لتنقذ أختها من زوجها الخائن الأثيم وقد أخفقا جميعا فلم يستطع بيير أن ينقذ الثورة ولم تستطع إيف أن تنقذ أختها ويلقاهم أحد الموتى فيسألهما دهشا: ألم تنجحا فيما حاولتما؟ فيجيبه بيير: كلا يا سيدي لقد تمت اللعبة فليس لأحد اللاعبين أن يختار ويلقاهم مع ذلك ميتان أحران فتى وفتاة يخيل إليهما أن كلا منهما قد خلق لصاحبه وأنه قد غلط بهما في الحياة الأول وأنهما يستطيعان أن أتيح لهما الانتفاع بالمادة الأربعين بعد المائة أن يستأنفا حياة سعيدة قوامها الحب فيشير عليهما بيير وإيف بأن يحاولا فمن يدري لعلهما أن يظفرا بما لم يتح لهما الظفر به.

وكذلك تنتهي هذه القصة التي لم أرسم لك منها إلا أيسر ما فيها وهي على ذلك تصور لك ما قصد إليه جان بول سارتر من عرض هذه الظروف القاسية المحتومة التي يفرضها النظام الاجتماعي والسياسي والتي تفرق بين الناس تفريقا محتوما لا سبيل إلى التخلص منه إلا إذا تغير النظام السياسي والاجتماعي وزالت هذه الفروق التي تجعل من الناس أقوياء وضعفاء وفقراء وأغنياء لا سبيل إلى أن يلتقوا ولا إلى أن ينعموا بالحياة ما دامت قائمة فهم يجدون المساواة إذا ماتوا ويطمحون غليها مخلصين ويودون أو ردوا إلى الحياة ليحققوها ولكنهم لا يستطيعون تحقيقها إذا ردوا إلى الحياة لأن اليد الواحدة لا تستطيع التصفيق ولأن النظام السياسي والاجتماعي لا تغيره إرادة أو فرد أو أفراد وإنما تغيره إرادة أجماعية لا تتحقق إلا بالتطور ومن يدري لعل التطور لا يكفي لتحقيقها ولعلها تحتاج لشيء أشد عنفا من التطور وهو الثورة.

وليس هنا موضع الحديث عما يمكن أن يكون بين هذا التفكير الفلسفي وبين الفلسفة الوجودية من تقارب أو تباعد وإنما الشيء الذي ليس فيه شك هو أن هذا النحو من التفكير ملائم لما أشرت إليه آنفا من رأي الكاتب في بحثه عن الصلة بين الأدبي وبين الجماعات فيحاول بول سارتر يريد أن يجعل المساواة بين الناس حقيقة واقعة تريدها الجماعة كلها ولا يريدها الأفراد متفرقين وأحسبك توافقني على أنه قد صور من ذلك ما أراد تصويره فبلغ من هذا التصوير ما أحب.

أما القصة الثانية فعنوانها الأنوف المستعارة وهي تدور بالفعل حول أنوف مستعارة يخف بها أصحابها أنوفهم التي ركبها الله في وجوههم والقصة فكاهة ولكنها فكاهة مرة تضحك ولكن من حماقة الإنسان وسخفه وضعفه وتعلقه بالمنافع الآجلة وانقياده للوهم واستسلامه للسلطان وغن كان ضعيفا لا يعتمد على قوة تسنده أو تجعله مصدرا للخوف.

فأنت حين تبدأ القصة في دهاليز القصر الملكي في مورافيا وهذا الدهليز قذر مهمل قد ضربت عليه العنكبوت بنسخها ورجل قائم على سلم يحاول أن يرد إلى سقف الدهليز وجدرانه نظافتها ويزيل عنها نسج العنكبوت ثم تعرض عليك صورة أخرى ترى فيها حجرة العرش وقد

اجتمعت فيها حاشية الملك ووجوه الدولة وفي موقدها نار ضئيلة تخمد شيئا فشيئا ولكنك تلاحظ على كل من ترى في القصر من رجال ونساء ومن سادة وخدم أنهم يحملون في وجوههم أنوفا ضخمة مسرفة في الضخامة تجعل هذه الوجوه قبيحة مضحكة ثم يقبل الملك والملكة فتنهض الحاشية ويحاول الملك أن يجلس على عرشه فإذا هو مضطرب لا يثبت قد قصرت بعض قوائمه فيضطر بعض الحجاب إلى أن يتموا هذه القوائم القصيرة بقطع من الخشب يوجهونها بينها وبين الأرض حتى إذا ثبت عرش الملك يتحدث إلى وجوه دولته فيعلن إليهم أن ابنه الأمير أندريه سيفترن بالأميرة أجات بنت ملك القوقاز وأن هذه الأميرة في طريقها ألان إلى عاصمة مورافيا وسيجعل الله لهذه الدولة الضخمة الفقيرة يسرا بعد عسر وغني بعد فقر وفرجا بعد حرج ثم يشير الملك إلى صورة مغطاة قد علقت إلى أحد الجدران فيرفع عنها غطاؤها وتظهر الأميرة من ورائه رائعة الجمال بارعة الحسن ليس فيها إلا عيب واحد وهو أن أنفها طبيعي جميل فإذا نبه الملك إلى ذلك دعا رسام القصر فأمره بأن يصلح هذا الأنف فيقبل الرسام على الصورة يضخم أنفها ويفخمه ويسبغ عليه من القبح ما تمتاز به الأنوف في مملكة مورافيا هناك يرضى الملك ورجال الدولة عن الصورة ويدعى الأمير الشاب ليراها فإذا أقبل نظر إلى الصورة في تكره واشمئزاز ثم انصرف عنها معرضا يظهر الإذعان للقضاء المحتوم أكثر مما يظهر الشوق إلى خطبه التي شغفت قلبه حبا وفي أثناء هذا كله يلاحظ الملك أن خدم القصر قد تركوا أعمالهم وأبوا أن يستجيبوا له إذا دعا فإذا سأل عن ذلك أنباه وزير العمل بأن خدم القصر قد قرروا الإضراب إذا تمت الساعة الحادية عشرة لأنهم لم يقبضوا أجورهم منذ ستة أشهر وقد حاولت الحكومة إقناعهم بأن زواج الأمير سيملأ الخزائن ذهبا وسيقبضون رواتبهم ومكافآت أخرى ولكنهم لم يحفلوا بهذه الوعود هنالك يعلن الملك أن يتناولوا فيما بينهم أعمال الخدم ثم ينهض الملك نفسه فيقدم الأسوة الصالحة ويأخذ في ترتيب الحجرة ويضطر وجوه الدولة إلى أن يصنعوا صنيعه فهم ينقلون الأثاث القديم الموروث ليضعوا مكانه أثاث جديدا أنيقا قد استعاره الملك من أعضاء حاشيته وربما كان من المضحك أن نلاحظ أن الملك في أثناء حديثه إلى وجوه دولته يرى سيدة تصطك أسنانها من البرد فيأمرها الملك بالخروج ويمضي في حديثه ولكنه يسمع أسنانا أخرى تصطك فيهم أن يغضب ولكنه ينظر فإذا الملكة هي التي تصطك أسنانها من البرد هنالك يأذن بالنهوض وضرب الأرض بالأرجل طلبا لبعض الدفء وكذلك ينهض هو وتنهض معه حاشيته ويأخذون في طرق الأرض بأرجلهم حتى إذا ظفروا ببعض الدفء عادوا على مقاعدهم ومضى الملك في حديثه.

ثم يعرض علينا المطبخ وقد اخذ رجال ونساء من وجود الدولة يعملون فيه يهيئون الوليمة التي ستدعي إليها الأميرة إذا كان المساء وهم يختصمون فيما بينهم خصومات مضحكة

تدل كلها على أنهم محنقون من هذا العمل الذي اضطروا غليه والدي لا يحبونه ولا يحسونه ولا يعملونه في قصورهم وإنما هو فقر الدولة قد اضطرهم إلى هذا الهوان لأن هذا الزواج سيجلب للدولة مالا كثيرا فيعود أمرها إلى اليسر والثراء ولكنهم على ذلك قد ضاقوا بالملك وابنه وبهذه الحياة المنكرة التي تفرض عليهم وعلى الشعب فهذه الأنوف الضخمة الفخمة البشعة إنما فرض عليهم وعلى الشعب كله حملها لأن الأمير قد ولد كبير الأنف بشعه فأراد الملك ألا يحس الأمير أنه منفرد بهذه البشاعة ممتاز بهذا القبح فشرع قانونا يفرض على الشعب كله أن يتخذ الأنوف الضخام ومضى الشعب على هذه السنة المنكرة حتى أنفها وحتى أصبحت الأنوف الطبيعية عورة يجب أن تستر وحتى تهالك الناس على التماس هذه الأنوف الطبيعية يختلسون النظر إليها خفرة ومن وراء الحجب ويتحدثون عن أماكن اللهو التي يمكن أن يغشوها وأن ينفقوا فيها النفقات الضخمة ليروا أنفا طبيعيا جميلا وليستطيعوا مسه فأما تقبيله فشيء لا يتاح إلا للذين ينفقون في سبيله أضخم النفقات.

وللملك أخ ضيق بهذه الحياة طامع في العرش يدبر ثورة يخلع بها أخاه ويطرد بها ابن أخيه ويرقى بها إلى الملك ويزيل عن الناس أنوفهم هذه المستعارة ويبيح لأنوفهم الطبيعية أن تظهر للهواء والنور وتستمتع بحريتها كاملة وهو يتحدث في المطبخ إلى أعوانه من وجوه الدولة بما دبر من هذه الثورة فيقرونه على خطته وينفقون على إفساد الوليمة أولا فسيقدم إلى المدعوين أقبح طعام وأردؤه وستكون الخدمة منكرة مخالفة للمراسم والتقاليد وسيعتمدون حين يدورون بالصحاف والشراب على المدعوين أن يسيئوا الخدمة فيصبوا النبيذ والمرق على ثيابهم الجميلة وعلى أكتاف السيدات العارية ثم سيفسدون على الضيف نومهم فيضعون الضفادع في الأسرة حتى إذا كان الغد واحتشد الأشراف والشعب لإمضاء عقد الزواج صدرت إشارة فألقى كل إنسان أنفه الصناعي وأظهر الأشراف جميعا أنوفهم الطبيعية وأعلنت الثورة ورأى الأمير أنه وحده صاحب الأنف الضخم القبيح وهم يثقفون على هذا كله وقد استمع الأمير لبعضه أثناء مروره أمام المطبخ فابتهج له لأنه كاره لهذا الرواج يريد ألا يتم.

ثم يعرض علينا مقدم الأميرة وقد خرج الملك لاستقبالها في بعض الطريق فلم يكد يتلقاها ويتحدث إليها ويطهر لها صورة الأميرة حتى تراع الفتاة حين ترى هذا الأنف وحين تعلم أن الأنوف كلها في مورافيا على هذا النحو من البشاعة ويزداد جزعها حين يعرض عليها الملك أنفا صناعيا تخفى به أنفها الصغير الجميل وهي تثور وتمتنع وتحاول أن ترفض هذا الزواج ولكن وزير ابنها بأنه الزواج أو الدير فتذعن كارهة وتضع أنفها الصناعي كما يضع رجال حاشيتها ووصائفها أنوفهم الصناعية وتصل إلى القصر وهي تتمنى ألا يتم هذا الزواج بشرط ألا تكون هي مصدر هذا الإخفاق حتى لا تضطر إلى الدير وقد أحتاط أبوها الملك واحتاطت معه دولة

القوقاز لهذا النكر الذي ستدفع إليه الفتاة فألحق بحاشيتها ضابط رشيق وسيم ليكون في خدمتها وليعز بها عن حياتها تلك المنكرة وقد أخذ هذا الضابط يتقرب إليها وأخذت هي تطمئن إلى دعابته ولكنها ربما فكرت في أن تهرب مع هذا الضابط إلى حيث يعيشان عيشة الحب والسعادة بعيدين عن هذه الأنوف الكبار وقد بلغت الأميرة القصر واستقبلها الأمير استقبالا فاترا متكلفا أنكر أنفها وأنكرت أنفه وتمنى كلاهما ألا يتم هذا الزواج ثم كانت الوليمة وأقبل الخدم وهم من وجود الدولة فقدموا أراد طعام وخدموا أسوأ خدمة وهم بعضهم أن يصب النبيذ على الأميرة فيتقيه الأمير بيده وهم آخر أن يميل قنديله ليسقط على كتف الأميرة الشمع المذاب فيضع الأمير يده على كتفها ليتلقى هذا الشمع وتذعر الأميرة لذلك فتلطمه ويوشك الأمر يده على كتفها ليتلقى هذا الشمع وتذعر الأميرة لذلك فتلطمه ويوشك الأمر أن يفسد أولا أن الوزير يرمق الفتاة فتذكر الدير ولولا أن المرضع تمس الأمير فيذكر حاجة الدولة إلى المال.

وتمضي السهرة على شر حال وتمر الأميرة بالمطبخ مستخفية حين يتقدم الليل فتسمع الأشراف وهم يتخذون قراراتهم الأخيرة لإتمام الثورة فتبتهج بهذه القرارات وتنضم إلى المؤتمرين لأنها لا تريد أن يتم الزواج ولأنه لن تحتمل تبعة الإخفاق إذا كانت الثورة ولكن وزيرا أبيها مختبئ كما كانت مختبئة وهو يسمع لما سمعت له ويندس بين المؤتمرين حتى إذا أجمعوا أمرهم أعلن إليهم أنه مكلف أن يزوج الأميرة من وارث العرش في موارفيا كائنا من يكون فإما أن يقبل أخو المالك أن يتخذ الأميرة لنفسه زوجا وإما أن يفضح هذه الثورة قبل وقوعها هنالك يتقدم أخو الملك معلنا اعتباطه بهذا الزواج ويسقط في يد الأميرة فهي بين اثنتين: أما التي تتشرف به على الهرم والفناء فإن لم تقبل هذا ولا ذاك فهو الدير وهي مقتنعة بأن ليس لها بد من الهرب فهي تأمر الضابط بأن يهيئ لها وسائل الفرار والضابط كاره لذلك فهو لم يرسل ليحتمل تبعات الحب الحر وإنما أرسل ليكون خليلا لولية العهد ثم خليلا للملكة حين يرقى زوجها الأمير إلى العرش ولكنه مع ذلك يظهر الطاعة ويسرع إلى الوزير فيظهره على جلية الأمر ويطلب إليه أن يختلط لمنعهما من الهرب وقد خلت الأميرة إلى نفسها آخر الليل في غرفة من غرفات القصر ولم تكد تدخل هذه الغرفة حتى رأت جماعة من التماثيل قد وضعت لها أنوف ضخام وهي ثائرة فتضرب أنوف هذه التماثيل حتى تسقط وتنزع أنفها الصناعي وتمعن في البكاء ويمر الأمير فيسمع نحيبها فيدخل الغرفة ولا يكاد ينظر إلى الفتاة ويرى أنفها الطبيعي الصغير الجميل حتى يأخذه دهش وإذا هو ينزع أنفه المستعار وترى الفتاة فيه شابا أنيقا وسيما وهو يعطف على الأميرة عطفا لا حد له فقد عرف أنها مثله قد ابتليت بأنف صغير وأنها تخفى هذه الآفة بأنفها الصناعي فهو يحبها لأنها شريكته في هذه المحنة فأنوف الناس كلهم كبار إلا أنفه هو وهو كم أجل ذلك مضطر إلى أن يتخذ هذا الأنف الصناعي ليخفي به عاهته وتحاول الأميرة أن تقنعه بأن أنوف

الناس كلهم صغار ولكنه لا يقتنع والمهم هو أنه أحبها لأن لها آنفا صغيرا كأنفه الذي كان يخفيه وهي تحبه لأن له أنفا طبيعيا كأنوف غيره من الناس ويقبل الضابط وقد هيأ للهرب كل شيء ولكنها تعلن إليه أنها لن تقبل ثم ترى الجمع قد احتشد من غد لإمضاء عقد الزواج وترى عرش الملك مضطربا كما رأيناه من قبل ونراه يسند بقطع الخشب وترى المائدة التي سيمضي عليها العقد مضطربة قد قصرت قوائمها فما تزال تسند بقطع الخشب والمجلدات الضخام حتى تستقر وقد ارتفعت فلم يحتج الملك أن يجلس ليمضي العقد وإنما هو يمضيه قائما متطاولا ثم تصدر الإشارة التي اتفق عليها فتلقى الأنوف الصناعية كلها ويظهر الناس بأنوفهم الطبيعية الصغار ويطلب أخو الملك إلى الأمير الشاب أن يعتزل ولاية العهد فما ينبغي الملك مورافيا أن يكون مشوه الخلق وما ينبغي أن يملك على هذه الأرض من أكره الشعب في سبيله عشرين عاما على حمل هذه الأنوف المستعارة البشعة هنالك يلقى الأمير أنفه الصناعي ويظهر كما خلقه الله شابا وسيما جميل الأنف فيضطرب الناس ويميلون إليه ولكن أخا الملك يعلن أن هذه الفتى ليس ولي العهد فقد ولد وولي العهد كبير الأنف وأثبت الأطباء ذلك وصدر القانون بحمل الأنوف الكبار من أجل ذلك والملك نفسه دهش فهو يعلم أن ابنه ولد كبير الأنف ولكن المرضع تعلن الحقيقة وهي أن ابن الملك قد مات بعد ولادته بأشهر قليلة وأن أمه الملكة التي ماتت منذ عشر سنين قد اتخذت مكان ابنها طفلا صغيرا واتخذت له هذا الأنف الصناعي فعلت ذلك كله حبا للملك وإشفاقا عليه أن تنتقل ولاية العهد من ذريته فيورثه ذلك حزنا عظيما وقد نهضت الأميرة فألقت أنفها الصناعي وأعلنت أنها لن تتزوج إلا هذا الفتى وأنها أن صرفت عنه فستؤثر الدير هنالك يتجه الملك إلى الشعب والأشراف سائلا ماذا تريدون؟ أتريدون ملكا من الأسرة المالكة أم تريدون ذهب القوقاز؟ فيتلقى الجواب الإجماعي بأن الشعب يريد مال القوقاز ويعلن الملك أنه تبني هذا الفتى فأصبح أميرا شرعيا وليا للعهد.

وكذلك تنتهي هذه القصة وضد عرضت عليك خلاصتها موجزة ولم أعرض عليك شيئا من خصائصها الفنية التي تتصل بالإخراج والعرض وتلائم السينما بوجه عام وقد رأيت ما في هذه القصة من مغزى سياسي واجتماعي وخلقي ورأيت أن جان بول سارتر قد استطاع أن يذيع في القصة الأولى من طريق الحد أراء فلسفية هي بعينها التي تؤلف فيها الكتب وتكتب فيها الفصول وتنشأ فيها المسرحيات واستطاع في القصة الثانية أن يذيع من طريق الجد فجد السينما وهزله كجد التمثيل وهزله وكجد الكاتب والمقالة وهزلهما يمكن أن يكونا وسيلة من وسائل التصوير والتعبير التي تحقق الصلة المنتجة المجدية بين الجماعة وبين الأديب.